الحلقة الثالثة والعشرون

رابندرانات طاغور
محمد إقبال

obeikandl.com

في شبه القارة الهندية، التي حكمتها بريطانيا حكماً مباشراً قرابة مائة عام.. من عام ١٨٥٧م حتى منتصف القرن العشرين (١٩٤٧م)، كان هناك شاعران وفيلسوفان.. لمعا ليس على مستوى القارة الهندية وحدها، ولكن على مستوى العالم قاطبة، فليس هناك من لا يعرف (طاغور وإقبال)، وليس هناك من لم يقرأ لهما.. ويعشقهما، بعد أن أصبح لكل منهما تلامذته ومريدوه.. بامتداد الكرة الأرضية قاطبة، هما: «رابندرانات طاغور» و«محمد إقبال».. اللذان ولدا في زمن الاحتلال البريطاني، وتخرجا من جامعاته (كمبريدج)، وحارباه فيما بعد.. وطوال حياتهما بـ «الفكر» و«الكلمة». بـ «الشعر» والفلسفة، وبـ «النضال» السياسي.. إلا أنهما ماتا قبل هزيمته وانسحابه النهائي، الأول: عام ١٩٤١م، والثاني.. عام ١٩٤٨م.

عن هذا الفنان الخالد (طاغور)، وعن هذا الشاعر العبقري الملهم (إقبال).. أتحدث في هذه الحلقة، إذ ليس عدلاً أن أتحدث عن أحدهما دون الآخر، وليس إنصافاً أن أتجاهل أحدهما لحساب الآخر.. فكلاهما صفحة مضيئة من صحائف القرن العشرين،

obeikandl.com

وكلاهما قمة من قممه الأدبية والشعرية والفلسفية الشامخة.. لا تخطئهما الذاكرة الإنسانية ووجدانها النبيل، ولو أنني تجاوزت أحدهما.. لما غفرت لنفسي خطيئة هذا التجاوز أبداً.

* * *

ولد (طاغور) في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٦١م).. في مدينة الأدب والفن والموسيقى والغناء (كلكتا)، الشهيرة على مستوى العالم كله.. ولعل آخر ما قدم العالم عنها سينمائياً، هو الفيلم الأمريكي الأشهر (أوه.. كلكتا)!! ولأنه.. من عائلة شديدة الثراء، فقد كان سهلاً عليه بعد أن أنهى دراسته الثانوية.. أن يسافر إلى بريطانيا لدراسة القانون في جامعة كمبريدج، ثم عاد إلى أرض الوطن بعدها.. ليدير أملاك أبيه الشاسعة، فكان مفترضاً أن ينتمي بثراء أسرته وتعليمه البريطاني إلى طبقة الأرستقراطية الهندية.. المتفاهم بعضها مع الاحتلال البريطاني، إلا أنه اختار أن ينضم إلى الطبقات الفقيرة الكادحة من الفلاحين والعمال، بل وأن يجند أدبه وشعره وأغانيه.. لخدمة الحركة الوطنية التي كانت تطالب بـ «الاستقلال»، أما فلسفته.. فقد كانت تحلق بعيداً في تأملاتها الروحية العذبة.. وهي تبحث عن معنى (الوجود) وماهية الروح؟! ولذلك لم يكن غريباً أن يكون (برهمياً) وثنياً بـ «الولادة».. بينما يؤمن - في ذات الوقت - بوحدانية الله، بل ويرى أن روح الإنسان.. هي قبس من روح الله، كما لم يكن غريباً.. أن يُعجب المثقفون في النهاية بـ «تأملاته الفلسفية»، بينما يعجب الفلاحون والعمال بأغانيه وألحانه.

لقد استغرقت الكتابة حياته الطويلة التي امتدت لثمانين عاماً: قصة ورواية ومسرحاً ومائة ديوان شعري.. لكن هذا الإنتاج الأدبي الوفير.. كان غائباً عن عيون الغرب، صاحب الوسائط والوسائل و(الميديا) عموماً.. في آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولكن عندما قام بترجمة أعماله.. إلى الإنجليزية لفت أنظار الغرب إليه، وبدأت تتجه إليه.. عيونه أو آذانه، ولذلك عندما كتب ملحمته أو قصيدته الشهيرة (جينتجالي).. جاءته بـ «نوبل للآداب» عام ١٩١٣م، ليكون أول أدباء وشعراء آسيا الذين يفوزون بـ«نوبل» للآداب، وأول المستفيدين منها.. فقد جعلت العالم كله يبحث عنه، وعن إنتاجه وأعماله الشعرية، والقصصية والروائية الكبرى كروايات (البستاني) والهلال ودورة الربيع.. التي تعتبر الأهم من بين أعماله وإن تقدمتهم روايته الطويلة والعظيمة (القلوب الضالة)، إلى جانب مؤلفاته الفلسفية: (الساداهانا) و(القومية) و(دين الإنسان).

لقد أثّرت إبداعات (طاغور) الشعرية الغنائية.. والقصصية الروائية.. في الفن الهندي عموماً.. وعلى المستوى الغنائي والسينمائي خصوصاً، إذ كانت منجماً للأفكار والرؤى والأحلام.. يستلهم منها الفن الهندي الكثير من مواضيعه فضلاً عن مكانته وقيمته، وإلى الحد الذي حمل الرئيس أيوب خان.. ثالث رؤساء باكستان في الستينيات – بعد تقسيم الهند إلى دول ثلاث: (الهند، وباكستان، وسيلان) لأن يعبر عن إعجابه الشديد بالأغاني البنغالية الحزينة.. تلك التي لا أظن أن أحداً كتبها غير (طاغور)

نفسه، الذي كان شديد الاعتزاز بشعره وأغانيه.. وإلى الحد الذي كان يردد معه: (لا يهمني من يكتب للناس دساتيرهم.. مادمت أنا الذي أكتب أغانيهم)!!

* * *

عندما بلغ (طاغور) الأربعين من عمره.. ورغم نضاله الوطني ضد البريطانيين.. أخذ يؤسس مدرسة هي مدرسة (دار السلام)، التي كانت مناهجها تعبيراً عن إعجابه بـ (التعليم الأوروبي) الحديث.. رغم سخطه على ماديته وجفافه الروحي، وانفصاله عن منابع عظمة الوجود والخالق، لتتحول تلك المدرسة بعد واحد وعشرين عاماً.. وبـ «وسطيتها» بين الروح والمادة إلى جامعة (هي.. جامعة فيسفا بهراتي) التي ماتزال قائمة إلى يومنا هذا، لتفجع الهند بوفاته عام ١٩٤١م.. وهو في الثمانين من عمره، فلا يواسيها في فقده إلا تلك المكانة التي جلبها لـ «الهند»، واحتلها لنفسه.. بين الخالدين كواحد من أعظم رجالات شبه القارة الهندية ومبدعيها، وربما بذلك القفص الذي تركه في منزله بطيوره البنغالية الأربعة عشر.. التي كان يتفاءل بوجودها لتذكر أبناءه وأحفاده بأنه كان الابن الرابع عشر لأبيه!!

* * *

■■ أما عبقرية الشعر والفلسفة الهندية الإسلامية (محمد إقبال).. فقد ولد في مدينة (سيالكوت) الإسلامية الصغيرة عام ١٨٧٣م، حيث حفظ القرآن في كتاتيبها، ثم غادرها إلى مدينة لاهور – عاصمة ولاية البنجاب الأشهر – حيث نال الليسانس

والماجستير، ثم غادرها أيضاً.. إلى جامعة «كمبريدج» البريطانية لدراسة الفلسفة، ومنها إلى جامعة (ميونيخ) لدراسة القانون، ليعود بعدهما إلى أرض الوطن.. فيتفرغ لثلاثة أمور: الدفاع عن المظلومين.. والسعي لدعم استقلال ولايات الهند الإسلامية الكبرى الثلاث في دولة واحدة.. صاغ اسمها من تلك الولايات (البنجاب، وكشمير، والسند.. إلخ) فكانت (باكستان)، الذي تحقق حلم قيامها بعد وفاته بتسع سنوات عام ١٩٤٧م، وأخيراً.. الكتابة: فلسفة وشعراً، التي أخذته إلى (التصوف) بداية، فلم يعجبه ما يسمى بـ (التصوف العجمي).. لأنه يدعو إلى إنامة الأمة، بينما كان يناديه التصوف العملي.. ذي الطبيعة الجهادية، الذي كان مثله الأعلى فيه الرسول عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم.. فـ «أبي بكر» وعمر، اللذين اعتبرهما نماذج «المتصوفين» العاملين لمجد أمتهم، لتنتهي به أبحاثه ودراسته الفكرية والفلسفية الإسلامية.. إلى الإيمان بأن العصر الذهبي للإسلام إنما كان عصر الفاروق عمر، ثم أخذته الكتابة بعد ذلك إلى البحث عن (الذات) الإنسانية.. التي رآها حقاً لا باطلاً.. لأن الإنسان الكامل – عنده – هو الأقرب إلى الله، ليشكل هذان الجناحان قوام فلسفته، التي كتب فيها وعنها الكثير بـ (الأوردو).. ككتاب (هدية الحجاز)، وبـ (الإنجليزية).. ككتاب (تجديد الفكر الإسلامي)، فكانت ترجمة الدكتور عبدالوهاب عزام للأول.. هي التي قربت (إقبال) إلى العالم العربي مهد الإسلام والرسالة المحمدية.. كما

قرب كتابه الثاني من صورته وصورة الإسلام البهي عند الغرب.. ليصبح (إقبال) معشوقاً للشرق وللغرب.

* * *

لكن، بعد مضي تسعاً وعشرين عاماً من وفاة (إقبال).. قام الأزهري الرائع الشيخ الصاوي شعلان بـ «ترجمة» قصيدة إقبال الخالدة أو (ملحمته) الشعرية الإسلامية الكبرى الفريدة: (حديث الروح) من «الأوردو» إلى «العربية».. بجزئيها (الأول)، وهو الشكوى، و(الثاني).. وهو جواب الشكوى، لتختطفها سيدة الغناء العربي (أم كلثوم) وتسلمها لأمير الموسيقى الشرقية: رياض السنباطي، لتشدو بها في ربيع عام ١٩٦٧م.. مبتدئة بـ(جواب) الشكوى الذي يبدأ بـ (حديث الروح للأرواح يسري وتدركه القلوب بلا عناء/ هتفت به فطار بلا جناح - وشق أنينه صدر الفضاء/ ومعدنه ترابي ولكن جرت في لفظه لغة السماء).. قبل (الشكوى) نفسها التي تبدأ بـ (شكواي أم نجواي في هذا الدجى - ونجوم ليلي حسدي أم عودي/ أمسيت في الماضي أعيش - كأنما قطع الزمان طريق أسى عن غدي)، ويحلق مستمعوها في طول الوطن العربي وعرضه.. لبقية ما جاء في تلك القصيدة الخالدة، كقول (إقبال) أو (الصاوي شعلان):

[تحاورت النجوم وقلن صوتاً - بقرب العرش موصول الدعاء
وجاوبت المجرة علَّ طيفاً - سرى بين الكواكب في خفاء
وقال البدر هذا قلب شاك - يواصل شجوه عند المساء]

أو قوله:

[من كان يهتف باسم ذاتك قبلنا – من كان يدعو الواحد القهارا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة – لم يبلغوا من هديها انوارا
هل أعلن التوحيد داع قبلنا – وهدى القلوب إليك والأنظارا
ندعو جهاراً لا إله سوى الذي – صنع الوجود وقدر الاقدارا]

.. لتتدفق من بعده وقبله.. موسيقى ذلك اللحن السيمفوني الهادر، الذي لا أدري شخصياً كيف استطاع السنباطي.. أن يستلهمه!

* * *

لقد كان طريفاً.. أن يبعث السفير الباكستاني بالقاهرة آنذاك في طلب إحضار (طبلة هندية) من (كراتشي) لتشارك في عزف ذلك اللحن الرائع وغير المسبوق.. الذي جدد بحق محبة الناس وعشقهم لـ (إقبال) وشخصه ولقصيدته المعجزة!

لقد كان (طاغور) و(إقبال).. قمتين آسيويتين فريدتين في القرن العشرين، لن تتكررا! إنهما كـ (نهر الغانج).. في شمال شبه القارة الهندية: وحيد وفريد ومقدس.